الليلة السابعة

بقلم : عباس محمد عباس

في تلك الليلة . كان عم رضوان يتفحص — ككل شيء حوله — في صمت واسترخاء لعله يصيد لحظات من النوم قبل ان يدهمه النهار . . . ومجاة صمت السكون حطة عمياء ادامها الصمت الكبير بسرعة وبمرور اكثرات بعد ان عم رضوان انغمس على اثرها مذعورا واشعل الشمعة على عجل ليستكشف بنورها الخابي مصدر تلك الحطة . وكان الامر كما توقع فقد اصطدمت اخيرا تلك المصيدة اللعينة بذلك النار اللعين . . . . واقترب عم رضوان بوجهه من المصيدة يرمق بعينه الواحدة النار الصغير وهو يتخبط داخل سجنه بحركات مشدوهة تبحث عبثا عن الخلاص . . . وفي حماس تناول عم رضوان صفيحة مارغة نهش الصدأ قلبها من مدة الاستعمال ووضع بكارة تحت ابطه ثم انطلق خارج « الكشك » في خطوات سريعة مبدأ — لقصر طبيعي في ساقه اليسرى — وكأنه يقوم برقصة هندية الحركات . . ومن البحيرة الصناعية الصغيرة التي تتوسط الحديقة الكبيرة ملأ الصفيحة الى ما يقرب من منتصفها بالماء وعاد يظلها خافق القلب كأنه ماشق في الطريق الى موعد غرامي يرصده المخاطر . . . . وفي حذر فتح عم رضوان باب المصيدة فانطلق النار في ماء الصفيحة « يطيش » في يأس وهلع وعيناه المستديرتان تلمعان في رأسه الرمادية الصغيرة وهي تظهر وتختفي في الماء ومخالبه تخربش جدران الصفيحة كأنما تريد أن تحفر فيها منفذا للخلاص . . . . ووقف عم رضوان يظفر النظرة مهيج العواطر يراقب النار في نضاله المرير . . . . وحينما بدأت حركات النار تفقد حدتها وهلمها وقبل ان يستسلم تماما لمصيره انتشله عم رضوان من الماء واعاده الى المصيدة في حركة خاطفة غير واعية . . . . وفي الليلة التالية سحر عم رضوان من انقاذه النار بعد تلك الليالي المضنية التي قضاها مع مصيدته بتآمران ويتشاور ، ومن ثم ملأ الصفيحة ووضع النار في باطنها وقد صمم على تركه يحرق ولكن حينما اوشك النار على الغرق تماما عاد عم رضوان وانقذه من جديد ثم اعاده داخل المصيدة مع قطعة خبز . . . وتكررت العملية بكل طقوسها في الليلة الثالثة . . والرابعة . . . والخامسة . .

وفي صباح الليلة السادسة جلس عم رضوان خارج الكشك مستندا الى جدار أثري قديم يطوي تحته الكشك سدا الثلاثة — الجدار والكشك وعم رضوان — كأشياء لا مبرر لوجودها في الحديقة . . . . وفي بطء مقصود لف

عم رضوان لنفسه سيجارة أخذ يجذب انفاسها في تلاحق شره حتى توهجت بين اصابعه كجمرة النار ... وكالعادة وجد امامه « لمعي » الحلبي بقامته الربعة ووجهه المتلئ وشاربه الكث وقميصه الكاكي المفتوح دوما على صدره برغم البرد .. وقال لمعي وعيناه تشتعلان مع شقيته :

ـ صباح الخير يا عم رضوان .

وعلى غير العادة رد عم رضوان التحية ولكن لمعي الذي كان يحترم معاكساته استطرد بلهجة تدعي الاشمئزاز :

ـ امبارح ريس الحلبية قدم فيك شكوى علشان ماتلمش هنا لان الكشك ده محترم بوش لوكانده !

وكلم عم رضوان عيله المعتاد يحاول ان يشتري بصمته صمت لمعي ، ولكن لمعي استمر في ترشرشه الضاحكة يضيف الى اكذوبته المزيد من التفاصيل حتى امهارت قدره عم رضوان على الاحتمال فانفجر يشتم ويلعن لمعي بالفاظ غريبة وصوت جهير مقتت سورته كل اقرانها. بينما وقف لمعي الى القرب منه وبداء في خاصرته وبين شقيته انسلة ساخرة بدت وكأنها لن تغادر مكانها الى الابد ... واراد عم رضوان ان يحسم الموقف فمد يده الى حواره يريد ان يقذف لمعي بمكانه ولكنه اكتشف ان المكان ليس في مكانه .... وهنا جرى لمعي ساخكا وانضم الى باقي الحقيقية يحكي لهم المقلب بنفس مرتاحة وهم يتفرقون في أنحاء الحديقة لمباشرة اعمالهم بينما ظل عم رضوان يبحث عن مكانه حتى وجده معلقا على فرع شجرة يتأرجح كحبة مشمومة فاحذه في مقلب مقهور بشتائمه تتعالى بلا حساب لامة الايام السوداء التي جعلته يعمل حارسا في هذه الحديقة ، وامه التي انجبته لكل هذا الشقاء . بل ان المقلب الذي ساعده في الحصول على هذا العمل بل هو الآخر مالا يستحق من الشتائم واللعنات .... وعند الظهر استطاعت اشعة الشمس أن تفتح بعضها في سقف السحاب ثغرة فمرت منها الحديقة بدفء باعم اعرى عم رضوان بالاستلقاء على التجيل الرطب ، وسرعان ما استسلم الارهاق الى النوم اكثر من ساعتين استيقظ بعدهما على صوت طري ينادي :

ـ مجدي .. خليك بعيد عن السلك

وصبح عم رضوان عينيه ليبصر صاحبة ذلك الصوت الطري وكانت زينب تلك المرسة السمراء ذات الجسد الانثوي المثير المحشور دوما في فستان ضيقة وقد جلست تتأمله على مقعد خشبي احضر بلون التجيل الذي يغطي الارض حلمها حيث كان مجدي يلعب بكرته الملونة ... وكالعادة استقرت نظرات عم رضوان على مفاتن زينب ، وكالعادة ايضا انتبهت زينب وهي تلقي على عم رضوان نظرة سريعة مستمرئة وتجاهلته بعدها فتركة مفاتنها تهنأ لنظراته الراشة .... ويصق عم رضوان بلا سبب ولعن في سره زينب ومفاتنها اللتين لا تستقران على حال ولا تحتملان من العيون حتى ولو كانت عيونه هو .. ونهضة قام عم رضوان صارخا كوحش يلقي طعمة فاتلة :

ـ يا ولد ابعد عن حوض الورد

وكان الولد بالفعل بعيدا عن حوض الورد ولكن هذا لم يمنعه من ضربة

شديدة صفعه بها عم رضوان على ظهره ماحد الولد الضربة ومر بها مخروعا وشتائم عم رضوان تنهمر عليه من صحيح ليس له ما يبرره .... وجاء لمعى ، وكما يحدث دائما استطاع ان يجد الى جوار زينب ما يمكن أن يمنحه مراح شديد في جلسة مصطنع حلقة التجيل بمقص كبير أحدث ضربات الطارعة بطل بطلقة عالية ..... وبسرعة اندمجا — زينب ولمعى — في حديثهما المعتاد بالكلمة والنظرة والاشارة وربما اللمسة .... والتفت عم رضوان على كراهية غير مستعد تماما لنسيه حتى حاتمها بحسو لمعى وزينب والتجيل الاخضر والسماء التي بدا يعلوها الغيم من جديد ... وبلا مناسبة قال عم رضوان :

— انتي يا بنت .. حدى الولد وروحي الدنيا برد عليه الهادرة .

وانتبهت زينب في غير قصد ولمعى حبيب عمها :

— والله ما حد بارد الا انت .

ووقف عم رضوان مدة لحظات يمير لمعى بنظراته الغاضبة ثم يعمق على الارض في اتجاهه بصوت مسموع وحمل عكازه وكراهيته وسار بخطواته المترنحة حتى استقر عند طرف الحديقة المقابل وامامه امرأة صغيرة الحجم بيضاء البشرة ، اثيثة الثياب تتحرك بين يديها آلة التريكو في سهولة وعيناها مختصمان — بنظرات تشبه نظراته — طفلها القابع الى جوارها في عربته الصغيرة السوداء ... وتمنى عم رضوان أن تكون له زوجة مثلها مطيعة ورقيقة . تعيش معه في منزل نظيف وجميل ... وهرش عم رضوان ظهر كفه ... ثم صدره ... ثم أخذ يهرش كل جزء من جسده واحساسه بالقذارة يسلخ كل مشاعره الاخرى ... ومرة ثانية لف لمسه سيجارة وقبل أن ينتهي منها سمع هيصا يدور خلفه .

— يا بلاش الدموع دى امال

— يعنى اسيبهم يحوروس على كيفهم ؟

— انا مقدرش اعيش من غيرك يوم واحد !

— ولا انا ... ولا انا ...

وتفتحت كل نفس عم رضوان لاستنشاق ذلك الحديث المعطر الباكي الذي يأتي اليه من خلف الحاجز الذي سمته النباتات المتسلقة والذي يسميه الجنايينية « ركن العشاق » لانعزاله عن باقي الحديقة بما يحجبه من العيون .. وفي خفة اقترب عم رضوان من الحاجز ومن ثغرة يعرفها جيدا بين الفروع المتشابكة كأنما تقوم بمراك أيدي أحد براقسما بأخرى ... كانت الفتاة صغيرة وجميلة بقدراتها في منديل رقيق سبح بحصلة كبيرة من الشعر ان تستقر على جبينها وكان الفتى يجلس الى جوارها على المقعد كتمه في كفها وعيناه في عينها وقد ارتدى « بلوفر » من الصوف الاسود نثرت عليه نجوم بيضاء ... كل شيئهما حلوا ... حلوا الى أقصى درجة حتى بدا بنظرهما في عتمة الغروب المهاجمة كلوحة طازجة الألوان .. وقالت الفتاة بغيرة مختلطة بالدمع .

— انا حموت نفسي اذا ....

وقاطعها الفتى بأن وضع اصابعه

المرتعشة على فمها ... وتلفتت الفتاة كمن وراحت تمرر اطراف اصابعه بتلات رقيقة متلاحقة ... ومحـــاة صرح عم رضوان :

— يا مجرمين

ثم استدار في اعقاب صرخته حـول الحاجروامسك بلحيتي وهو يتابع صراخه :

— انا حوديكو في داهية يابلاعين .. انتم ماكرين نفسكم مين .. انتم ... انتم .. وتجمع الكثيرون ... وانطلقت من بينهم كلمات الاستفسار والاستهجان والاستعطاف تملأ الجو والفتى يقاوم الموقف بفلول شجاعته والفتاة تهدىء نفاها ودموع مرتاعة تملأ عينيها ، وعـم رضوان يصرخ بصوت عال امرعه الغضب من كل محاســـــه .... وجاء لعمي وحلمه ريب ... وفي هدوء وقـــوة استطاع لعمي ان يمسك قبضة عم رضوان عن صـــدر الفتى ... وانصرف الفتى وخلفه الفتاة تتبعه كلما توقف وما اكثر ما توقف ناظرا خلفه يطمئن عم رضوان بنظرات جارحة ومجروحة ... وتفرق الجميع ... وفي خطوات متعبة جر عم رضوان نفسه الى داخل الكشك واعلقه عليه وجلس صامتا متكوما .... حتى جاء عليه الليل .. وكان الجو باردا ومروع الاشـــجار في الخارج تئن من صرخات الهواء المشمشة جريحة صامتة من احساس عم رضوان بالوحشـــة والكآبة فاندفع يلعب مع القار لعبته القاسية .. وكلما انتهت اللعبة يعاودها من جديد بمرارة اكثر وهو يراقب القار بنظرات فيها لون الدم ولون الصـــديد والليل يبدي بينما الامطار في الخـــارج تهمي بشدة والجاج ... وفي المـــرة الخامسة — وربما السادسة — التي كان يقوم فيها عم رضوان بلعبته القاســـية مع القار سمع طرقا على الباب .وكاد ان يبدي الامر ولكن الطرق كـــان حقيقيا فاحنى القار ثم فتح الباب . وقبل ان يجمع شتات نفسه كانت « وردة » قد خطت داخل الكشك وهي تقول :

— اصلي ماقدرتش حتة استحمى فيها من المطر الا هنا ... والا عيه مانع ؟

وكان لديه الف مانع الا ان المفاجـأة افقدته القدرة على الكلام فاغلق الباب في صمت حائر ثم جلس في احد الاركان ينظر اليها فيما يشبه البلاهة وهي تجلس على الارض بعدان خلعت ملاءتها الســوداء المبللة بماء المطر ... فمن كان يصـــدق ان وردة التي تبيع جسدها في احراش الحديقة الواســعة بقادرة ان تقترب مجرد الاقتراب من عم رضوان بعد تلك المعارك القاسية التي خاضتها هذه حينما اراد ان يطردهـــا دفاعـــا عن « شرف » حديقته .... وتململ عم رضـــوان في ضيق وهو يتذكر شتائم وردة الفاجرة وطريقتها في المراك التي اجبرته على ان يوقع معها معاهدة غـــير مكتوبة بان يتجاهل ويتجاهلني كل منهما وجـــود الآخر ... ودقق عم رضوان النظر في وردة كان يراها لاول مرة بوضوح تحت حمئة الضوء تلقيها عليها الشمعة فبدت له حقيقة عمرها الذي ضم قبضته على يقرب من الخمسين عاما لم تســـتطع اخفاء وجودها صبغة الشعر الفاضحة، ولا السنة الذهبية التي تبرق في مقدمة فمها .. ووسط الصمت الذي امتد بينهما باردا كالثلج موحشا كجوف معجم مهجور انفجرت وردة باكية في صوت اقرب ما يكون الى مواء القطط . وشـــعر عم رضوان بالدهشة والضيق وهم بطردها

ولكنه قبل لها بصوت لم يكن هو سيده :

— مالك ؟!

وأجابته وردة بمزيد من البكاء متقدم بعضها فاشيا وبعضها لم يتصده امساك بذراعها . فسكتت عن البكاء ورمعت نحوه عينيها مبللتين بالدموع وبينهما نظرة منكسرة كأنما تريد أن تشهد بهما شيئا .... وارتبك عم رضوان وقال وأصابعه تلين على ذراعها :

— مالك يا بنت الناس ؟

فقالت وردة في صوت خفيض.... خفيض جدا :

— تعبت خلاص .... اول امبارح روحت رى ما جيت ... وامبارح برليس الأداب كان مالي الجنينة ....والنهارده لابك شايف المطر مش عايز يبطل الدنيا وحشه ... وحشه خلاص ...

ولم يجد عم رضوان ما يقوله فجلس الى جوارها صامتا ... ولما طالت به الجلسة ولم يجد شيئا يفعله حاول ان يقوم فامسكت به وردة — ربما من غير قصد — فعاد الى مكانه بلا كلام ولحم كفها يضغط على لحم كفه وبين عينيها نفس النظرة المنكسرة التي تبدو وكأنها تريد أن تشهد شيئا .....

وفي الصباح الباكر وبعد ان رحلت وردة بوقت قصير . وقف عم رضوان أمام الكشك يراقب بنظرات هادئة السماء التي ما زالت تكتظ بكتل السحاب السوداء ، وطرقات الحديقة الموحلة ، والاشجار البللة الجذوع ، والازهار المتقطة بقايا المطر ..... وشعر عم رضوان بكل ما حوله يعسولا طازجا مبتلات نفسه بحيوية طازئة دعته الى السير في الحديقة فترة طويلة من الوقت يصفر بفمه « ويشوط »الحمى بعكازه .... وحينما عاد الى الكشك احتاجته رغبة غير مفهومة في ان يطلق سراح الفار السجين .... وبلا تفكير كثير أخرج عم رضوان المصيدة من مكانها ووضعها على عتبة الباب ... ومن حذر فتح باب المصيدة وحبس انفاسه من انتظار خروج الفار الى الحديقة الواسعة ... ولكن الفار لم يخرج لانه كان قد مات .